

سيرة العلامة الخوري ميخائيل الغزيريّ وأبرز منجزاته^١

([١٧٠٨] - [١٧٩٢])

هو ميخائيل غرسيّه تلميذ المدرسة المارونيّة في روما المعروف بالغزيريّ نسبة إلى بلدة أسرته غزير. وُلد في طرابلس سنة [١٧٠٨] [...] كما يقول الدكتور الخوري ميشال بريدي^٢ بعدما نزح والداه من غزير إلى طرابلس. [...] سافر إلى روما سنة ١٧٢٠ ودخل مدرسة روما المارونيّة، [وله من العمر ١٢ سنة] حيث أقسم اليمين أمام الرئيس على حفظ قوانين المدرسة. وكان من رفاقه في السفر إلى المدينة المقدّسة التلميذ الآخر إسطفان عوّاد الحصريّ. وهناك درس بجدّ ونشاط ونال شهادة الدكتوراه بالفلسفة واللاهوت^٣ [في ١٢ أيار ١٧٣٢] (أطروحة الخوري ناصر الجميل، المجلد الأول، ص ٥٥٤)، وأتقن اللغات الشرقيّة واللاتينيّة. [وبُعَيْدَ نيله شهادته هذه، وتكليف من الكاردينال زونداري (Felice Zondadari) محامي المدرسة المارونيّة في روما ومحامي الطائفة المارونيّة معاً]، بدأ بتعليم الفلسفة واللاهوت، فضلاً عن اللغتين العربيّة والسريانيّة، للرهبان الموارنة المقيمين في دير مار بطرس ومرشّلين حيث كانوا لا يزالون يقيمون هناك، قبل أن باعوه سنة ١٧٥٣، ونقلوا إلى ديرهم الحاليّ، مار أنطونيوس الكبير، في ساحة مار بطرس في السلاسل^٤.

^١ اعتمادنا، في وضع هذه السيرة، على مقالة الأبّاتي بطرس فهد بعنوان "العلامة الخوري ميخائيل الغزيريّ، ١٧٠٥ - ١٧٩٢" التي نشرها في كتابه *مخات وأحاديث مارونيّة*، جزء ثانٍ، العُقيبيّة، لبنان، مطابع يوني برنتنغ برس، ١٩٩٢، ص ٢٣٨ - ٢٥١، بعد أن أدخلنا عليها بعض التعديلات والتصويبات لضرورات منهجيّة. هذا فضلاً عن مرجعين آخرين اعتمداهما وهما: أطروحة الخوري ناصر الجميل بالفرنسيّة *Les Echanges culturels entre Les Maronites et l'Europe, du Collège Maronite de Rome (1584) au Collège de Ayn-Warqa (1789)*, Beyrouth, 1984, pp 553- 578، التي أشار إليها الأبّاتي فهد مراراً في حواشي مقالته؛ فضلاً عن محاضرة الأب اغناطيوس سعادة "ميخائيل الغزيريّ، الدعوة العلميّة عبر مسيرة حياته" المنشورة في *الذكريّ المئويّة الثانية للعالم الماروني ميخائيل الغزيريّ (١٧٩٢ - ١٧٩٩)* رائد الاستعراب في إسبانيا، الكسليك - لبنان، جامعة الروح القدس - الكسليك، ١٩٩٩، ١٣ - ١٩.

^٢ في كتابه الصغير عن العلامة الغزيريّ ص ٣٥. ومثل هذا قال الخوري العالم ناصر الجميل عندما ذكر في أطروحته أنّه سافر إلى روما خلال سنة ١٧٢٠ وكان عمره ١٢ سنة. [ولا بدّ من الإشارة إلى الخلاف الذي وقع بين مترجمي الغزيريّ حول تاريخ ولادته (تراجم الحاشية ٥٠ من الصفحة ٥٥٤ من الجزء الأول من مؤلّف الخوري الجميل) والذي حسمه الخوري ناصر الجميل عندما حدّدها في العام ١٧٠٨ (ص ٥٥٤)].

^٣ راجع مجموعة المجمع للأب منسي (Mansi) اللاتينية ص ٢٧١، ومجموعة القوانين للسيد لاشنيسيس (Lacensis) مجلّد ٣، ص ٤١١، نقلاً عن الخوري بريدي المذكور ص ٢٣ في الحاشية الثانية.

^٤ [هؤلاء الرهبان هم التابعون للرهبيّة المارونيّة المريميّة، وُقِّفَ لاسم رهبنتهم في الوقت الراهن. وهي الرهبانيّة التي أسسها المطران عبدالله قراعلي سنة ١٧٩٦ ودعاها الرهبانيّة الحليّة، ثمّ أدخل تعديلاً على اسمها بعد تأسيسها بسنوات، ثمّ طرأ تعديل آخر على التسمية حتّى باتت كما هي معروفة اليوم. والسلاسل هي التي قيّد بها بطرس الرسول لدى اعتقاله من قبل هيروودس في أورشليم ثمّ نُقلت في فترة لاحقة إلى روما حيث شُيِّدت كنيسة ووضعت فيها ودُعيت كنيسة سلاسل القديس بطرس وانسحبت التسمية على المكان حيث توجد الكنيسة San Pietro in Vincoli].

وفي تاريخ ٢٤ تمّوز سنة ١٧٣٢ نال الدرجات الصغرى في السلك الكهنوتيّ من يد المطران جبرائيل حوّا الحلبيّ الذي كان يقيم في دير مار بطرس ومرشللين بروما^١. وفي ٢٩ أيلول سنة ١٧٣٤ رُقي إلى الدرجة الكهنوتيّة، كما قال عنه الكاتب الفرنسيّ جوردين^٢.

وعندما عُقدَ المجمع اللبنانيّ، في دير سيّدة اللوزية سنة ١٧٣٦، حضره الخوري ميخائيل الغزيريّ. وقد رُوِيَ أنّه سافر مع السمعانيّ الذي جاء ليترأس المجمع، وقيل إنّه جاء مع الأبّاتيّ توما اللّودي^٣. وكان مجمع البروبوغنده في روما قد عبّته لاهوتيّاً خاصّاً بالمجمع اللبنانيّ. [وبهذه الصفة حضر الغزيريّ المجمع، فضلاً عن صفة أخرى وهي تمثيلة لمطران طرابلس باسيلوس عبد الأحد لعدم تمكّن هذا الأخير من الحضور نظراً لتقدّمه في السن]^٤. وبقي الخوري ميخائيل الغزيريّ في لبنان سنتين كما ذكر الخوري ناصر الجميل في الموضع عينه، رجع بعدها إلى روما ليواصل التعليم في دير الرهبان الموارنة المذكورين. وأرسل معه القاصد الرسوليّ، المونسنيور السمعانيّ، رسالةً إلى الكاردينال زونداداري [...]. تاريخها هو السادس من شباط سنة ١٧٣٨.

وبعد عشر سنين قضاهما الغزيريّ في دير الرهبان في روما يعلّم ويشرح، وكان رئيس الدير عهدئذ هو الأب العالم يواصاف الدبسيّ البسكنتاويّ الذي صار في ما بعد مطراناً، جاء من إسبانيا إلى روما حاكم منطقة جاكه jaca الشريّة السيّد دون فيليب راميراز (Don Felipe Ramirez) الإسبانيّ، وكان أستاذ الغزيريّ الأب فرنسيسكو دي رافاغو (Francisco De Ravago) اليسوعيّ (١٦٨٥-١٧٦٣) صديقاً حميماً لهذا الحاكم^٥. فعرف رافاغو الحاكم راميراز بالخوري الغزيريّ، واصفاً له مقدراته العلميّة وسعة اطلاعه على اللغات الشريّة واللاتينيّة، فسُرّ به الحاكم راميراز، ودعاه إلى زيارته في إسبانيا حيث يمكنه أن يكون موظفاً في محكمة التفتيش كمترجّم للغات الشريّة: العربيّة والسريانيّة والعبريّة، وخاصّةً هذه الأخيرة التي كانت لغة اليهود المنتشرين في إسبانيا وسائر الجمعيّات السريّة. ولحسن حظّ الخوري الغزيريّ كان معلّمه الأب رافاغو اليسوعيّ قد تعيّن مُعزّفاً للملك فرديناندو السادس في القصر الملكيّ الإسبانيّ، ومديراً عاماً للمكتبة الملكيّة. وكان يسعى لتوظيفه في المكتبة المذكورة للاستفادة من علومه الشريّة. فلما وصل الخوري الغزيريّ إلى إسبانيا، استقبله معلّمه الأب رافاغو هذا، وكتب إلى ناظر المكتبة السيّد بلاذ أنطونيو نظار (Don Blas Antonio Nasarre) بتاريخ ٢٣ نيسان سنة ١٧٤٨ قائلاً ما ترجمته^٦: "سيّدي، يطيب لي أن أُبلّغكم أنّ جلاله الملك يرغب في أن تعيّنوا، استثنائياً، دون ميخائيل الغزيريّ غرسيه كاتباً في المكتبة الملكيّة براتبٍ مرموق، ابتداءً من اليوم الواقع فيه الـ ١٨ من الجاري. وعندما يصبح أيّ مركز في المكتبة شاعراً يُلغى عندئذٍ هذا الإنعام، ويُعيّن الغزيريّ بطريقة عاديّة في المركز الشاغر، إنّما يجب أن يُعيّن مُترجماً (scribenta) للمكتب الشريّة الواجب أن تكون على أحسن طريقة وأجملها، وتفضّلوا سيّدي وأحيطوا علماً الإدارة وصاحب

^١ راجع أطروحة الأب ناصر الجميل ج ١ ص ٥٥٤، نقلاً عن مخطوطات مجمع البروبوغنده مجلد ٤٥ ص ٤٢٩.

^٢ أنظر جوردين في كتاب ميشو: Michaud, Biographie Universelle ant. et modern, Paris

^٣ راجع أطروحة الخوري ناصر ج ١ ص ٥٥٥.

^٤ نجم، المطران يوسف مطران عكّا النائب البطريركيّ، المجمع الإقليميّ [المجمع اللبنانيّ المنعقد في دير سيّدة اللوزية في زوق مصبح في الثلاثين من أيلول والأول والثاني من تشرين الأول سنة ١٩٣٦]، ترجمه عن النسخة اللاتينيّة المطبوعة في رومية بمطبعة انتشار الإيمان المقدّس سنة ١٨٢٠، جونه، مطبعة الأرز، ١٩٠٠، ص ٥٥٦. ونشير إلى أنّ المطران باسيلوس تويّ ليل الخميس ١٥ تشرين الثاني ١٧٣٦ كما ورد في يوميّة السيّد يوسف سمعان السمعانيّ لما جاء إلى لبنان قاصداً رسولياً لعقد المجمع اللبنانيّ للطائفة المارونيّة، والتي نشرها الأب لويس بلبيل، الراهب اللبنانيّ البلديّ، في مجلّة المشرق، السنة ٢٥، ١٩٢٧، وتحديداً على الصفحة ٥٧٢ منها].

^٥ حدث ذلك بين سني ١٧٤٠ و١٧٤٧، كما يقول الأب الدكتور ميشال بريدي في كتابه المذكور، ص ٢٤.

^٦ وقد استجاب الناظر "نظراً" لطلب الملكيّ كما ذكر الخوري الجميل في المرجع نفسه، ص ٥٥٦.

الصندوق بذلك ليهيئوا له الراتب المقرّر كالموظّفين الآخرين في المكتبة. حُرِّزَ في ٢٣ نيسان سنة ١٧٤٨. (التوقيع): فرنسيسكو رافاغو".

ويؤكّد الخوري ميشال بريدي^١، "ردًّا على قول الكاتب الفرنسيّ جوردين الذي يدّعي أنّ الخوري الغزيريّ سافر إلى إسبانيا بناءً على دعوة أستاذه الأب رافاغو اليسوعيّ، أنّ الغزيريّ، خلافًا لقول جوردين (Jordain)، دعاه لزيارة إسبانيا حاكم جاكه (Jaca) السالف الذكر في الجهات الشرقية، إذ كان في رحلة إلى العاصمة روما. وأمّا أستاذه الأب رافاغو فقد سعى حثيثًا إلى توظيفه في المكتبة الملكية". وهكذا أصبح العلامة الغزيريّ [كاتبًا معاونًا escribiente supernumerario] في المكتبة الملكية الإسبانية منذ ١٨ نيسان ١٧٤٨. وابتداءً من أوّل حزيران من السنة نفسها، راح يجمع حوله عددًا من الطلاب، [وباشر بتعليمهم اللّغة العربيّة، قراءةً وقواعدًا، وترجمةً، وغير ذلك ممّا هو ضروريّ لتعلّمها]. وكان بين تلامذته الدون جوزف كربونيل دو فوجوسه (Don Joseph Carbonel y Fogassa) المفوض في البحريّة، والذي كان يدوّن الشروح التي يلقيها الغزيريّ، والتي ما تزال محفوظة في المكتبة الوطنيّة في مدريد، تحت رقم ١١٥٥٤. [تتضمن هذه الدروس، أوّلًا، على التدريب على الحروف، والضبط الإملائيّ، وتصريف الأفعال]. ثمّ تركيب العبارات وهي ترجمات عربيّة مأخوذة من الكتاب المقدّس إلى اللّغة اللاتينيّة. تأتي بعدها مجموعة كلمات إسبانيّة مترجمة إلى العربيّة واللاتينيّة، [يتبعها مجموعة من الكلمات الإسبانيّة مأخوذة من العربيّة واليونانيّة؛ فضلًا عن معجم مصطلحات عربيّة إسبانيّة]^٢. وهذا كان يُعتَبَر كافيًا في الابتداء لدرس العربيّة وترجمتها إلى اللاتينيّة.

لم يطلّ الزمان على الخوري الغزيريّ، بعد هذه الأعمال، حتّى قدّم طلبًا إلى كليّة التاريخ الملكية في مدريد، يلتمس فيه أن يُعيّن عضوًا فيها، فكتب إلى "مراقبها" العامّ، في الأوّل من تشرين الثاني ١٧٤٨، يقول: "يشرفني، أنا دون ميخائيل الغزيريّ دي غرسيه، الدكتور في اللاهوت، والكاتب في مكتبة صاحب الجلالة، وأستاذ اللغات الشرقيّة، أن أنقل إلى علم حضرتكم أن تتكرموا وتعيّنوني، لأجل منفعة عامّة فُضلي ومرغوب فيها، عضوًا في هذه الأكاديميّة الشريفة حسب درجاتها وقوانينها"^٣ المعرفة. وجاء في الوثيقة نفسها أنّ طلب الخوري الغزيريّ هذا قُبل، وعيّن عضوًا شرفيًّا في الجامعة ابتداءً من الثامن من الشهر نفسه من السنة ذاتها؛ على أنّه لم يُعيّن رسميًا إلّا في خلال سنة ١٧٥٦، وإليك تفصيل ذلك: في أواخر أيلول سنة ١٧٥٠، شغل مركز الكاتب دون كريستوبل دي سان جوان (Don Cristobal De San Juan)، فحلّ مكانه فورًا الخوري ميخائيل الغزيريّ بناء على تعيين الناظر العامّ بلاذ أنطونيو نظارّ له، ورضي جلاله الملك عن تعيينه، وكان ذلك بتاريخ الرابع عشر من أيلول من تلك السنة، إذ كتبت ناظر المكتبة إلى الغزيريّ قائلاً: "إنّ جلاله الملك عينك كاتبًا في المكتبة الملكية محلّ السيد كريستوبل دي سان جوان الذي توفّي حديثًا إلى جوار ربّه". وفي اليوم السابع والعشرين من شهر تشرين الثاني للسنّة نفسها كتب الأب رافاغو اليسوعيّ إلى الناظر المذكور دون بلاذ أنطونيو نظارّ يبلغه أنّ جلاله الملك يرغب في أن تُعطى إلى الخوري الغزيريّ كلّ الأجور والمكافآت retributions التي كانت تُعطى للسيد بنطوريللا pantorrilla.

^١ في كتابه الصغير باللّغة الفرنسيّة، ص ١٤.

^٢ [راجع هذا المخطوط في أطروحة الخوري ناصر الجميل، ج ١، ص ٥٨٧-٥٨٨].

^٣ راجع أطروحة الخوري ناصر، ص ٥٥٧.

وهذه الأوامر الملكية بُلِّغَتْ أيضًا إلى الإدارة الماليّة، وإلى صاحب الصندوق الماليّ، وإلى موظّفي المكتبة المذكورة، ليكونوا على علم بذلك ويعملوا بموجبه^١.

وأما الخوري الغزيريّ فكان نشاطه العلميّ، تجاه هذه النظرة الخصوصية، يدور على محورين: أكاديميّة التاريخ الملكية التي كان عضوًا شرفيًّا فيها، والمكتبة الملكية التي كان كاتبًا فيها. فأظهر فيهما مقدرة علميّة كبرى، ولا سيّما في حقل العلوم العربيّة، واللغتين اللاتينيّة والإيطاليّة، حتّى بلغ خبره علماء الإسبان فقدّروه أجلّ تقدير. وفي سنة ١٧٥٢، ولمناسبة انعقاد دورة الكليّة التاريخيّة الملكية، ألقى الغزيريّ خطابًا ممتعًا باللّغة اللاتينيّة، روى فيه ببلاغة، مآثر الملوك الإسبان والشعب الإسبانيّ، خاتمًا إيّاه بأربعة أبيات من الشعر باللّغات اللاتينيّة والعربيّة والسريانيّة، فصادف ذلك استحسانًا عظيمًا^٢. ومنذ هذا التاريخ بات تقدّمه في أكاديميّة التاريخ الملكية يسير بشكل جيّد. وفي تشرين الثاني ١٧٥٦ صار بإمكانه استخدام "اللقب الأكاديمي" ^٣. أمّا في المكتبة الملكية فقد تمكّن من الحصول على مركز مترجم اللّغات الشرقيّة الذي كان يشغله "دون أندراوس سان جوان" (Don Andrès de San Juan) الذي توفّي إلى خالقه^٤، وذلك لعلومه المتعدّدة، ومقامه الرفيع بين العلماء، وخاصّة لدى ناظر المكتبة العامّ السيّد "دون جوان دي سنتندر" (Juan De Santander)، ورضى جلاله الملك عليه، وإقدامه على وضع فهرس للمكتبة يتضمّن شرحًا واضحًا عن المؤلّفين وكتبهم وتواريخهم ومضامينها، وكلّ ما يتعلّق بها. وقد شرح ذلك بتفصيل وإقناع في رسالة رفعها إلى الأمين العامّ في الدولة الإسبانيّة بتاريخ سنة ١٧٥٦، وهي منشورة في أطروحة الخوري ناصر الجميل (ص ٥٥٨ - ٥٥٩)، يمكن الرجوع إليها هناك حسمًا للتطويل. وبناء على كلّ ذلك تعيّن الخوري ميخائيل ناظرًا للمكتبة الملكية في الإسكوريال. والآن ما هو الإسكوريال، وما هي أهمّيته في تاريخ إسبانيا؟

[وجوابًا على سؤالنا أعلاه نقتطف، بشكل حرّيّ، بعضًا مما وردّ في مقال هامّ للدكتور دريد المفتي عن دير الإسكوريال^٥: قرّر بناء] هذا الدير "الملك فيليب الثاني في اليوم العاشر من تمّوز سنة ١٥٥٧، إذ تلقّى فيه خبرًا عن انتصار جيوشه على الجيوش الفرنسيّة في موقعه سان كانتان، فعده يومًا مباركًا في حياته، وموجبًا لوفاء نذر كبير، ونُسبت إليه يومئذ مقولة شهيرة، وهي: "أريد أن أبنّي قصرًا لله وكوكنًا لي". وكان الملك فيليب الثاني هذا رجلًا متديّنًا عاش حياةً شبه رهبانيّة، اقتصرت [حاجاته] على تتبّع بقايا المسلمين في بلاده...".

^١ راجع المصدر نفسه، ص ٥٥٨، الحاشية ٦٨.

^٢ راجع المصدر نفسه، ص ٥٥٨.

^٣ Titre d'Académicien

^٤ كان ابن شقيق أندراوس سان جوان السيّد جوان عمّون (Juan Amon) يحاول أن يحظى هو بهذا المنصب لأنّ عائلته كانت تشغله منذ سنة ١٧٠٠، ولكن لم يكن عمّون هذا متضلّعًا من اللغات الشرقيّة واللاتينيّة مثل الغزيريّ، ومعروفًا بمثل مقدرته العلميّة الشاملة. [ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن عائلة سان جوان (San Juan) هي عائلة مارونيّة تعود بأصولها إلى مدينة حلب. وأوّل من قديم منها إلى إسبانيا هو عبد المسيح الذي كُفّف بأعمال الترجمة في المكتبة في العام ١٦٩٢، واستمرّ في العمل حتّى وفاته عام ١٧٠٠. ولقد تعاقب على تويّ هذا المنصب أفراد آخرون من هذه العائلة وذلك حتّى وفاة الـ"دون أندراوس سان جوان" على ما ذكّر أعلاه. ولزيد من التفاصيل حول هذه الناحية تراجع أطروحة الخوري ناصر الجميل، الجزء الأوّل، ص ٥٣٧ - ٥٤٣].

^٥ أنظر "الحركة الوطنيّة بين طبقتين وفتحين" في محلّة الملحق بقلم الدكتور دريد المفتي، وعنوانها رسالة من إسبانيا، لبنانيّ من غزير كان رائد الاستشراق في القرن الثامن عشر في إسبانيا، وقد نقلنا عنه هذه المعلومات الطريفة المفيدة.

"واستغرق إنشاء هذا المبنى الفخم أربعين عامًا. وقد اختار له مكاناً قرية الإسكوريال الواقعة على خمسين كيلومترًا شمال غربي العاصمة مدريد، على سفح جبل الرملة في ارتفاع ألف متر عن سطح البحر. فهي مصيف لطيف لسكان مدريد، تحيط بها المراعي والأشجار، وهي وجبل نافاسيرادا القريبة منها وغاباتها واحدة من واحات قليلة يلقاها الرحالة في هذه الهضبة".

"وأما الدير فهو كنيسة هائلة ذات حصن بالغ في الارتفاع ورائع الهندسة، يمتاز بخطوطه المستقيمة الواضحة، وبالضوء الباهر الذي ينفذ عبر شبابيك عالية ومحلاة بالزجاج الملون الجميل. ومذبح الكنيسة في صدرها قطعة فنيّة بديعة مزدهمة بالتحف واللوحات. وفي قبوها مقبرة ملوك إسبانيا، وآخر من دُفن فيها عظام الملك ألفونس الثالث عشر، آخر ملوك البوربون، وجدّ وليّ العهد الحاليّ دون جوان كارلوس. وحول الكنيسة حلقات متماسكة من غرف وقاعات وممرات، وقد كُسيّت جدرانها بسجاجيد المكوبلان، وحيكّت نقلاً عن لوحات مشاهير الفنّانين الإسبان، بدءًا بالفريكو وكان معاصرًا للملك فيليب الثاني، ومرورًا بموريو وفلاسكت، وانتهاءً بغويا مصوّر العصر النابوليونيّ ومخلّد المقاومة الإسبانيّة للوجود الفرنسيّ في تلك البلاد...".

"وأبسط غرف القصر إطلاقًا تلك الحجرة المظلمة التي خصّ فيليب الثاني نفسه بها، ولها طاقة تطلّ على المذبح المقدّس بحيث كان يتابع الصلوات من سريره عندما أفعده المرض عن الركوع والسجود. هذه الغرفة لا ينام فيها إلا راهب ناسك أو صوفيّ متقشّف: فيها سرير جافي الهيئة في ركن مُعتم، والأرض بلاط أحمر، وعلى الركن منها التسلية المفضّلة وهي قطعة حديد ممغنطة تجذب القطع المعدنية كان يتسلّى الملك بمراقبتها".

ولال هابسبورج، وهي السلالة النمساوية التي تربّعت على عرش الدولة الجرمانية المقدّسة بجناحيها الألمانيّ والإسبانيّ، ولعّ بالسطحيّ من التسليات. وشارل كانت، أبو فيليب الثاني، كان ولوعًا بالبيغات، وتخريب الساعات وتسييرها. وكان هو الآخر قد تنازل عن العرش، واعتكف في دير متواضع في أشدّ بقاع إسبانيا وحشة وقسوة، وهو إقليم اشترامادورا ومعناها بالعربيّة "الشدة القصوى".

"على أنّ بيت القصيد في هذا الدير الإسكورياليّ هو المكتبة، والطريق إليها عبر الرواق الذاهب من المدخل الرئيسيّ إلى الكنيسة، وهي مجمع حاشد لعشرات الآلاف من المخطوطات: اليونانية واللاتينية والإسبانية والعربيّة، والأخيرة تبلغ الألفين عددًا. وهذه المخطوطات ليست من بقايا المكتبة العربيّة الأندلسيّة، ولو أنّ بعضها استُنسخ من تلك الأصول. فالكُتب العربيّة أُحرقت عادة استرجاع غرناطة في مهرجانات متلاحقة التعصّب. فكانت طعامًا للنيران في الساحات العامّة، خصوصًا في عام ١٣٩٩... ومجمل ما يُقال في مخطوطات مكتبة الإسكوريال العربيّة إنّها بعض مكتبة السلطان المغربيّ مولاي زيدان. وكانت بينه وبين الإسبان حرب متّصلة، وكان يهّم بنقل مكتبته وذخائره من سلا إلى طنجة بحرًا، ولكنّ السفن وقعت في أيدي إسبانيّة، فاستولوا عليها وعلى ما فيها من كتبٍ ونقائس وأودعوها دير الإسكوريال. وكان ذلك على أيّام الملك فيليب الثالث سنة ١٦٢٠، وكانت يومئذ قرابة الخمسة آلاف. فلم يبقَ منها إلا ألفان بسبب الحريق. وكان إلى جانبها مخطوطات عربيّة كان الحُرّ أُقيم عليها في ذلك الدير الجبليّ منذ أيّام الملك فيليب الثاني...".

"وكان الكتاب الإسبان مُعرضين عن هذه المراجع والمصادر، فلم يتداولوها بالبحث والتنقيب على الرغم من أهمّيّتها القصوى لمن يعالج التاريخ الإسبانيّ العام... ولم تبقَ الحكومة الإسبانيّة من سباتها وتحرّر من جحودها، ولم تفكّر بإحياء التراث الأندلسيّ الفكريّ والتعريف

به إلا نحو منتصف القرن الثامن عشر، إذ دعت في العام ١٧٤٩ عالمًا شرقيًا يجمع بين الثقافتين اللاتينية والعربية هو ميخائيل الغزيريّ المارونيّ، وعهدت إليه أن يدرّس الآثار العربية، ويضع فهرسًا جامعًا لها. وكان الغزيريّ، بوافر ثقافته وعميق اتّصاله بعصور النهضة الأوروبية من خلال دراسته في المدرسة المارونية في روما، رجل المهمة، فلبي دعوة الحكومة الإسبانية، ولم تكتفِ هذه بالعهدة إليه بأمر المخطوطات، بل أسندت إليه إدارة المكتبة (أيّ أنّه كان ناظرًا لها)، وقد أنفق قرابة عشرة أعوام يدرس المخطوطات العربية ويحقّقها. ومن ثمّ بدأ بوضع الفهرست الجامع الذي عُهد إليه بوضعه".

"وفي عام ١٧٦٠ صدر الجزء الأوّل منه، وعنوانه: المكتبة العربية في الإسكوريال، واستهلّه بمقدّمة طويلة تحدّث فيها عن قيمة هذه المخطوطات العربية وأهمّيّتها، وجعل هذه الآثار عدّة أبواب وفنون، بادئًا باللغة والشعر والفلسفة والأخلاق والطب والتاريخ الطبيعيّ والرياضة والهندسة والفلك والفقّه والعلوم الدينية والقرآن. وعام ١٧٧٠، أصدر الجزء الثاني من الفهرست شاملًا المخطوطات التاريخية والجغرافية، وانتهت إلى الرقم ١٨٥١. وهذا مجمل ما حواه فهرس الغزيريّ...".

وقد شرح الخوري ناصر الجميل، في أطروحته الفرنسية الحديثة، ما حدا بالخوري ميخائيل الغزيريّ على وضع فهرست جامع عن مخطوطات المكتبة الإسكوريالية في إسبانيا، ونحن نختصره كالتالي: "قدّم الراهب الدومينيكي مرتينوس سرميننتو sarmiento صديق الخوري ميخائيل الغزيريّ إلى الأب اليسوعيّ رافاغو معلّم الخوري الغزيريّ (وكان رافاغو هذا يومئذ معرّفًا في القصر الملكيّ ومستشارًا للملك ومدبّرًا للمكتبة) تقريرًا dictamen ضمّنه وصفاً لبعض مخطوطات عربيّة نادرة هامة حقّقها الخوري الغزيريّ في المكتبة الإسكوريالية بوصفه كاتبًا فيها، وهي بالنظر إلى الدّولة الإسبانية كلّية التّفّع والخطورة، طالبًا منه السّعي لدى الملك لتكليف الخوري الغزيريّ وضع هذا الفهرست عن المكتبة الملكية لشهرته وتعمّقه في درس المخطوطات^١، وسعة معارفه في اللّغات الشرقية واللاتينية معًا. والجدير بالذكر أنّ كتاب الراهب الدومينيكيّ المؤرّخ في ١٢ تشرين الثاني سنة ١٧٥٠، يذكر كتبًا ومخطوطات هامة عن الزراعة لابن الوردّي، والبيطار، وعن الموسيقى لابن إبراهيم الصالحيّ، والجغرافيا لِعمر الوردّي، وعن الجوع والغلاء والطاعون لابن الخطيب، وغير ذلك ممّا يعود نشرها بالنفع العميم على الدولة الإسبانية.

وتابع يقول: "إنّ عملاً كبيرًا كهذا يقتضي له عدّة علماء ليقوموا به، إنّما في الوقت الحاضر لا نجد عندنا إلاّ الخوري ميخائيل المعظمّ يستطيع، في خلال شهرين، أن يجلب مطبعة لكلّ ذلك، إمّا من روما وإمّا من هولندا أو غيرها، للقيام بطبع هذا الفهرست الجليل المرتهنيّ".

ومعلوم أنّ تقدير الاب سرميننتو للخوري ميخائيل الغزيريّ، واختياره دون غيره لوضع الفهرست المطلوب، حاز الاستحسان لدى جلاله الملك. وفي سنة ١٧٥٣، صدر الإذن الملكيّ للخوري الغزيريّ بمباشرة العمل في الفهرست، على الرغم من أنّ بعض علماء الإسبان كانوا يودّون أن يقوم بالمشروع العلامة يوسف شمعون السمعانيّ الذي كان قد وضع في روما فهرسًا لمكتبة الفاتيكان. ولكنّ أمر الملك فرديناندو السادس كان قد صدر سنة ١٧٥٣، بواسطة المركزيّ إنسيمادا Ensamada.

^١ راجع الأطروحة ص ٥٦٠-٥٦٨.

^٢ طالع بعض مقاطع من هذا التقرير في أطروحة الخوري ناصر الجميل، ص ٥٦٠-٥٦٣.

فأكتب الخوري ميخائيل الغزيريّ على وضع الفهرست المطلوب، بمهمة جبارة متواصلة لا تعرف الكلل والملل. وفي سنة ١٧٥٦ كان الفهرست قد بوشر بطبعه. وفي عام ١٧٦٠، ظهر منه المجلد الأول. وفي سنة ١٧٧٠، ظهر المجلد الثاني. وكان الغزيريّ العظيم قد جمع في هذين المجلدين نحوًا من ألف وثماني مئة وواحد وخمسين (١٨٥١) مخطوطًا كانت مبعثرة في مكتبة الإسكوريال السالف وصفها، وكان الخوري الغزيريّ قد قسمها ونسقتها أبوابًا وفنونًا: قواعد، بيانًا، شعراء، لغة، قاموسًا، فلسفة، سياسة، طبًا، تاريخًا طبيعيًا، رياضيات، حقوقًا، ولاهوتًا (هذه محتويات المجلد الأول)؛ ثم جغرافيا، وتاريخًا (وهذه محتويات المجلد الثاني). إنّه، والحق يُقال، لعملٌ خطير جدًا قام به هذا العلامة المارونيّ الخوري ميخائيل الغزيريّ الذي اعتبره معاصروه العلماء من أكابر المترجمين وصانعي الفهارس.

بعد كلّ هذا، نقول مع الدكتور دريد المفتي^١ إنّ تبويب المخطوطات العربيّة الذي قام به الغزيريّ، فتح الباب على مصراعيه للباحثين في تاريخ العرب في إسبانيا وخواصّ مجتمعهم. فمنذ أواخر القرن الثامن عشر، توفّر العالمان الإسبانيّان: أندريس وماسدي على درس الآداب العربيّة. فأصدر الأوّل كتابه "أصول الأدب"، والثاني كتاب "تاريخ الحضارة الإسبانيّة". وفي أوائل القرن التاسع عشر وضع العالم كوندي "تاريخًا عامًّا" لإسبانيا المسلمة. ورغم قصوره عن استكمال النزاهة المطلقة في البحث، فقد غرق الغرب لأول مرة بسيماء الحضارة العربيّة الإسلاميّة، ورعى لهم حقّهم وفضلهم، ولاحق في أمته شدّتها معهم واستئصالهم.

وكانت المرحلة اللاحقة للإفادة من مخطوطات الإسكوريال متمثلة في الجهد الكبير الذي بذله المستشرق الهولنديّ رينهارت دوزي لإخراج كتابه "تاريخ المسلمين في إسبانيا حتّى فتح المرابطين". ثمّ لحق به، بعد حين، الكثيرون من المستشرقين الإسبان، والفرنسيّين، والإنكليزيّين، والألمان. وفي أواخر القرن الماضي [التاسع عشر] عالج المستشرق الفرنسيّ ديرنبورج (H. Derenbourg) فهرست المخطوطات العربيّة في الإسكوريال، فنحا منحى الغزيريّ، ولو أنّه لم يؤت صبر عالما اللبنانيّ المارونيّ الغزيريّ ليكتمل ما بدأه...

ويجدر بنا أن نختّم مقالنا عن أعمال علامتنا الغزيريّ بما قاله الدكتور الخوري ميشال بريدي^٢: "في مكتبة الإسكوريال الإسبانيّة الشهيرة الآن أكثر من مئتي مخطوط لم يُنشر عنها وصفٌ في مضامين الفهرست الغزيريّ. ولهذا السبب وغيره من الأسباب، كلّفت وزارة التعليم العامّة ديرنبورج أن يواصل العمل الذي بدأه العالم الغزيريّ لأهميته الكبيرة. وقد صدر مجلّد أوّل منه سنة ١٨٨٤. وأمّا المجلّد الثاني فلم يظهر منه إلّا الملمزة الثالثة في سنة ١٩٢٨ بعناية العالم ليفي بروفنسال Provensal. ومع ذلك بقي جهد هذا العالم وغيره ممّن قاموا بالمحاولات الكثيرة في هذا الشأن، رغم تطوّر الإمكانيات ومؤاتاة الأحوال، دون اللحاق بإخلاص العلامة الخوري ميخائيل الغزيريّ لعلمه ورسالته وسعة معارفه وصبره الطويل في هذا السبيل.

أمّا رائعة الغزيريّ الثانية، التي قد لا تقلّ أهمية عن الأولى، فهي ترجمته لـ"مجموعة القوانين المقدّسة للكنيسة الإسبانيّة" من العربيّة إلى اللاتينيّة، مع تعليقات وشروح قيّمة، وهي لا تزال مخطوطة تنتظر من يُخرّجها بالطباعة إلى النور، ووضعها في التداول^٣.

^١ راجع المقال نفسه ص ١٤-١٥

^٢ طالع كتاب الخوري البريدي المذكور، ص ٢٨.

^٣ سعادة، الأب اغناطيوس، "ميخائيل الغزيري، الدعوة العلميّة عبر مسيرة حياته" في الذكرى المئوية الثانية للعالم المارونيّ ميخائيل الغزيريّ (١٧٩٢-١٩٩٢) راند الاستعراب في

إسبانيا، مجموعة مؤلّفين، الكسليك، لبنان، جامعة الروح القدس، ١٩٩٩، ص ١٧.

"وتوزّعت نشاطات الغزيري العلميّة على أكثر من مجال، ملتقية كلّها على صعيد الاستشراق، أو ما سُمّي في إسبانيا بالاستعراب. فدرّس الكتابات الجدرانّيّة على قصر الحمراء في غرناطة، والآثار والنقوش العربيّة في أشبيلية وغيرها من المدن الإسبانيّة، والعملات القديمة، وأسماء عدد من المدن والقرى والأهوار والقلاع والأماكن ذات الأصل العربيّ، وقدم في ذلك نظريّات جريئة" أصاب في بعضها وأخطأ في بعضها الآخر. "كما جمع ٨٥٧ لفظة عربيّة دخيلة على الإسبانيّة، وترك مسوّدّة قاموس عربيّ-إسبانيّ"، ومسوّدّة أخرى لقاموس عربيّ- تركيّ-فارسيّ. أضف إلى ذلك نسخه لعدد من المخطوطات العربيّة، وترجمته لبعضها الآخر، فضلاً عن ترجماته ذات الطابع الرسميّ التي قام بها في البلاط الملكيّ. وهذه "التركة" القلميّة القيّمة "لا تزال محفوظة، بخطّ يده، إلى جانب مجموعة مراسلاته الشخصية، في المكتبتين الوطنيّة والملكيّة"^١ في إسبانيا.

إنّ مجموع ما أمضاه الغزيريّ من سنوات في إسبانيا، منذ قدومه إليها عام ١٧٤٨ وحتى وفاته، يقارب أربعاً وأربعين سنة، وهي مدّة طويلة "تفوق نصف عمره" الذي قضاه في هذه الفانية. وفي سنيّ حياته الأخيرة، "انقطع عن الأبحاث والكتابة تحت وطأة الشيخوخة والعمى والصّمم"^٢. ومما ضاعف من وطأة الأيام عليه ما لاقاه في شيخوخته هذه من تناسي الجميع له وتحلّيهم عنه، وما عاناه من عوّز وحاجة. ولأجل التمكّن من تأمين حاجاته اضطرّ إلى طلب المعونة والالتجاء، في ٢٣ أيلول ١٧٨٤، إلى فرنسيسكو بيريز باير (Fransisco Perez Bayer) الذي حلّف جوان دو سنتندر (Juan De Santander) في أمانة المكتبة، وهذا بدوره أبلغ، في التاسع والعشرين من الشهر والسنة ذاتهما، الكومت دو فلوريدا بلانكا (Le Comte de Florida Blanca) -السكرتير الأوّل لجلالة الملك- ما مفاده أنّ الغزيريّ يعاني من المرض والتقلّد في السنّ، وهو جدير بكلّ ثواب لاسيّما وأنّه واضع فهرست المكتبة الإسكورياليّة في جزئين والذي حاز التقدير في أنحاء أوروبا، فضلاً عن ترجمته كتاب قوانين الكنيسة المقدّسة الإسبانيّة من العربيّة إلى اللاتينيّة^٣.

توفّي الغزيريّ في مدريد في ١٩ تشرين الثاني ١٧٩٢ عن عمر يناهز ٨٤ عاماً^٤، "بعيداً عن الأهل، وعن الرفاق، وعن الوطن. وقد محت الأيام اسم الشارع والبيت الذي عاش ومات فيه، والمدفن الذي يضمّ رفاتة، حتّى ولم يُعثر له على رسم لصورة وجهه"^٥.

^١ المرجع نفسه، ص ١٧-١٨.

^٢ المرجع نفسه، ص ١٨.

^٣ الجميل، المرجع نفسه، ص ٥٧٧.

^٤ المرجع نفسه، ص نفسها.

^٥ اغناطيوس، الأب سعادة، المرجع نفسه، ص ١٨. ويذكر الأب سعادة، في الموضوع عينه، أنّ وفاة الغزيريّ حصلت عشية ١٢ آذار ١٧٩١.